الصلة بين علم البيان وعلم النحو "رؤية وتطبيق من خلال كتابي عبد القاهر الجرجاني"

د. علي بن محمد آل نومة القحطاني

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بجامعة الملك خالد

Ali_mohamed1986@gmail.com

الملخص:

يشير هذا البحث المعنون بـ:"الصلة بين علم البيان وعلم النحو "رؤية وتطبيق من خلال كتابي عبد القاهر الجرجاني" إلى خصوصية العلاقة بين علم البيان والنحو في العربية، وهي وجهة تقابل وجهة من ينفي وجود هذه العلاقة. حيث يتبنى البحث وجود ارتباط بينهما، بل إن علم البيان في كشفه لمجموعة الأصول والقواعد المختصة بإيراد المعنى الواحد بطرق متعدّدة تتنوع بين الحقيقة والمجاز، والتشبيه والكناية؛ وهذه الطرق ترتكز على النظام النحوي بوصفه الوعاء الذي ترد فيه هذه المعاني. وقد ارتكز البحث في هذه الوجهة على ما تبناه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه الأسرار والإعجاز لتأكيد تلك الوجهة. وجاء البحث موزعا على مبحثين رئيسين، الأول: مدخل عام ورؤية، والثاني: في موضوعات علم البيان وصلتها بالنحو، مع بعض النماذج التطبيقية التي تبيّن أثر النحو في تكوين الصورة البيانية وأبعادها.

الكلمات المفتاحية: البيان؛ التشبيه؛ الجرجاني، الكناية، المجاز، النحو.

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد

فغرض البحث الإشارة إلى مدى الارتباط بين علم البيان والنحو، فقد شاع بين كثير من الباحثين أنه لا تعلّق بين العلمين، وأن علم البيان قائم على التصوير ولا صلة له بالنحو، وهذا ليس بصواب؛ بل هما فرسا رهان ورضيعا لبان، يقول عبد القاهر: "فلا ترى كلاماً قد وصف بمزية وفضل فيه إلا أنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه"(١) فلأجل أن يتضح الأمر المشاركة في هذا المجال، وقد تكون البحث من مبحثين، الأول: مدخل عام ورؤية، والثاني: في موضوعات علم البيان وصلتها بالنحو، مع بعض النماذج التطبيقية التي تبيّن أثر النحو في تكوين الصورة البيانية، وقد اعتمدت فيها على كتابي عبد القاهر؛ كون عبد القاهر أهم من حرّر معنى النظم ، وفسره ونظّمه(٢)، وربط بينه وبين الصور البيانية،

(١) دلائل الإعجاز، (ص٨٣).

(٢) فلم يكن عبد القاهر أول من لفت إلى فكرة النظم، فقد سبقه الجاحظ، والأصفهاني ، والرماني، والواسطي، والباقلاني، والخطابي ، والقاضي عبد الجبار , انظر: شرح دلائل الإعجاز، ص٢٥ ، الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون، ص٥٦ ، والبلاغة عند المعتزلة، محمد هيثم غرة، ص١٧٠ فما بعدها ، وموروثنا البلاغي والأسلوبية الحديثة، د. محمد محمد عبد العليم دسوقي، ص٦٥-٦٦ .

وجعله الوجه الوحيد الذي من خلاله يعرف الإعجاز، كما أن دراسته كانت أعمق وأشمل، فقد قدم لنا بحوثا بلاغية قيمة، وفتح آفاقاً جديدة تعتمد على الذوق الفني والنقد العلمي لا على التقليد [٣] .

المبحث الأول: مدخل عام ورؤية

١- لاشك أن علوم اللغة العربيّة كتلةٌ واحدةٌ وكلٌّ لا ينفصل، وأن الفصل بينها إنما هو فصلٌ بين الروح والجسد، وهي صلة قائمة منذ الأصل والنشأة، والفصل بينها فصلاً كليّاً جنايةٌ من أعظم الجنايات، إذ إن كلَّ قسم منها مادةٌ للقسم الثاني لا يمكن أن يستغني عنه بأي وجه من الوجوه ، وإن اختلفت غاية كلٍّ منها، وإنّ مثلها قول أبي الأسود :

فإنْ لا يَكُنْها أو تَكُنْه فإنّه أخوها غَذَتْهُ أمُّه بلبانها[٤]

ولذلك فقه علماؤنا الأوائلُ هذا الأصلَ ، فكانوا لا يفصلون بين تلك العلوم، لعلمهم بتلازمها وترابطها؛ فكتاب إمام الصناعة سيبويه (ت:١٨٠) - الذي قيل إنه جلب مادّته من إملاءات شيخه الخليل (ت:١٧٤) - قد تجاوز مادّة النحو في تلك فتحدث فيه عن أسرار التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والالتفات، وغيرها من المباحث التي عُرفت بعدُ بـ(علم المعاني) [٥] ، وتحدّث أيضاً عن التشبيه والاستعارة والكناية التي عرفت بعدُ بـ(علم البيان)، بل ويتحدث عن الاستعارة بالكناية، والاستعارة في الاسم والفعل والحرف التي تعرف عند المتأخرين بالاستعارة باعتبار اللفظ المستعار، كما تحدّث في كتابه عما عرف بعد بعلم الصرف ، وعلم العروض، وعلم الأصوات، وعلم القراءات ، بل وعلم النقد الأدبي، وذلك لفقهه تلازمَ هذه العلوم واستحالةَ انفكاك بعضها من بعض، فجاء كتابه متضمناً كلَّ ما يُستعان به على فهم الكلام العربي والكشف عن سر تأليفه .

٢- لو تتبعنا حركة البحث البلاغي لوجدنا أنه منذ النشأة مرتبط بأسرته اللغوية لا ينفكّ عنها، ونجد أن كتب اللغويين والنحاة مليئةً بتلك المباحث، فبعد كتاب سيبويه توسعت تلك المباحث البلاغية عند أبي زكريا الفراء (ت: ٢٠٧) في كتابه (معاني القرآن) وهو لغوي كوفي، وبسط الكلام في المباحث البلاغية التي جاءت عند سيبويه، وكان يعاصره أيضا أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢٠٩) الذي ألف كتابه (مجاز القرآن)[٦] وأبو عبيدة لغويٌ بصري تتلمذ على يونس بن حبيب شيخ سيبويه، و تحدّث عن التقديم والتأخير والحذف والذكر والإضمار، وعن الاستعارة والتشبيه والكناية ، بل إن تأليفَه الكتاب كان بسبب مسألة من مسائل علم البيان وهي (التشبيه) في قوله تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)[٧] ، وهي قصة مشهورة معلومة.

بل حتى مع بدايات البحث البلاغي المستقل نجد أنّ نشاطَ النحاة واهتمامهم بمباحث البيان مازال مستمراً، فنجد أبا العباس المبرد (ت:٢٨٥) - وهو شيخ الطبقة السابعة من البصريين - يعقد في كتابه

(٣) انظر : المراجع السابقة .
(٤) البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، (٣/٢)
(٥) ويسميها بعضهم بـ(معاني النحو) والمقصود بها العلاقات التي تدلّ على مواقع الكلمات مهما كانت مقدمة أو مؤخرة، مذكورة أو محذوفة كالمبتدأ والخبر والفعل والفاعل ...الخ ، والمقصود لا يتحقق إلا بمراعاة تلك العلاقات التي هي معاني النحو، ولا يكفي فيه مجرّد الإعراب، ثم يأتي دور النظم وتوخّي تلك المعاني، وكيفية التصرف فيها لتحقيق الغرض المقصود . وانظر: شرح دلائل الإعجاز، محمد شادي، ص٢٦،٢٧ .
(٦) وهو يعني بالمجاز: مايعبّر به عن الآية، وليس المجاز الاصطلاحي الذي هو قسيم الحقيقة . انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية، ص٣٥ .
(٧) الصافات، آية ٦٥.

(الكامل) باباً مستقلاً في التشبيه، على نحوٍ لا تجد له نظيراً لأي باب من أبواب البلاغة، بل ويقسمه أربعة أقسام لم يسبق إليها، وتحدث كذلك عن الاستعارة، وكذلك الكناية وجعلها على ثلاثة أنواع، لكنه لم يعقد لها بابا خاصاً كالتشبيه. وقل مثله عند أبي العباس ثعلب (ت:٢٩١) وهو شيخ الطبقة السادسة من الكوفيين في كتابه (قواعد الشعر) [٨].

وهذا وغيره يُظهر بجلاء أن مباحثَ العلمين مرتبطة عندهم لا تنفصل أبدا، ومع أن تناولهم لها كان مجملاً باعتباره معنى يقصده المتكلم إلا أنهم يرونها كغيرها من مقاييس الكلام العربي الخالص؛ ولذلك فإن استقلال البلاغيين بتلك المباحث لم يكن استقالاً ينفصل عن أصله، وإنما أضافوا إليها وتوسعوا فيها، وجعلوا لها نوعا آخر من الدراسة، وهو دراسة الأسرار الكامنة وراء الأحوال والتراكيب، من حيث كونها مطلباً بلاغياً يقتضيه المقام، ويدعو إليه حال المخاطب[٩]، ومن حيث تأثيرها في النفس، إضافة إلى كونها وسيلة من وسائل البحث في إعجاز القرآن الكريم ومعرفة معانيه وأسراره؛ ولذلك كانت كتب اللغويين والنّحويين مادةً للبلاغيين كابن المعتز وغيره، وكان سيبويه أحدَ الذين استرفد عبدُ القاهر أفكارهم بعدُ وتأثر بهم[١٠].

٣- البلاغة في أنظار البلاغيين ليست أمراً مستقلاً عن النحو، بل إنهم انطلقوا من النحو حتى في منهج التأليف، فنجدهم يهتمون بالكلمة المفردة، ثم بالجملة والجمل، ثم بما وراءها من أسرار كامنة ناتجة عن ذلك النظم وذلك الترتيب، وهذا هو سِرُّ ترتيب الإمام السكاكي (ت:٦٢٦هـ) كتابَه (مفتاح العلوم) إذ جعله ثلاثة أقسام:

القسم الأول في الصرف، والثاني في النحو، والثالث في علمي المعاني والبيان، يقول في فاتحة كتابه: "وقد ضمنّت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لابدّ منه، وهي عدّة أنواع متآخذة، فأودعتُه علمَ الصرف بتمامه ... وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامُه بعلمي المعاني والبيان ... وإنما أغنت هذه لأنّ مثارات الخطأ إذا تصفّحتَها ثلاثة: المفرد، والتأليف، وكون المركّب مطابقاً لما يجب أن يتكلّم به، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخطّ إلى النظم، فعلما الصرف والنحو يُرجع إليهما في المفرد والتأليف، ويُرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير ... وأنت تعلم أنّ المفرد متقدّم على أن يؤلّف، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف، لا جرم أنّا قدّمنا البعض على هذا الوجه لنؤثر ترتيباً استحقّه طبعا"[١١].

٦- النحو وإن كان يظهر جلياً في علم النحو؛ إلا أن ثمة صلة قويةً بينه وبين علم البيان؛ فإذا كان النحو "هو العلم بأحكام مستنبطة من استقراء كلام العرب ، أي : أحكام الكلم في ذواتها، أو ما يعرض لها بالتركيب لتأدية أصل المعاني من الكيفية والتقديم والتأخير"[١٢] ؛ فإن علم البيان : "هو علمٌ يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[١٣]، فأصل المعنى يؤديه النحو – كما في

---

(٨) انظر فيما تقدم : الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، للدكتور: أجمد سعد محمد ، صادر عن مكتبة الآداب . البلاغة تطور وتاريخ شوقي ضيف ، ص٢٩ فما بعدها ، و الموجز في تاريخ البلاغة ، د. مازن المبارك .

(٩) انظر: خصائص التراكيب ، د. محمد أبو موسى، ص٧٥، و : علم المعاني ، بسيوني فيود، ص٣١ .

(١٠) انظر: البلاغة تطور وتاريخ ، ص٧٠، و المدخل إلى كتابي عبد القاهر، ص٤٣، و شرح أسرار البلاغة، ص٢٩ .

(١١) مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي، ص١٠ .

(١٢) وهو تعريف ابن الناظم، شرح الألفية، ابن الناظم، ص٣٠٢ . وقوله (العلم بأحكام مستنبطة من استقراء كلام العرب) هو تعريف ابن السراج (أصول النحو: ٣٥/١) وقوله (الكلم في ذواتها) يدخل معها علم الصرف .

(١٣) مفتاح العلوم، ص٢٨٩ .

التعريف المتقدم - ومن ثم يُعنى علم البيان بإيراد ذلك المعنى وتصريفه بطرق مختلفة؛ إما بتشبيه أو مجاز أو كناية، ويكون مدلولا على ذلك المعنى بكلام مطابق لمقتضى الحال، وإنما قُيّد بهذا لأن اعتبار علم البيان إنما يكون بعد اعتبار علم المعاني؛ فلا بد من مراعاة علم المعاني في علم البيان(١٤)؛ لأن "دراسة الصياغة ودلالات التراكيب ينبغي أن تكون مقدمة لدراسة كل صورة من صور البيان؛ لأنها هي الخطوط التي تتكون منها هذه الصور"(١٥) .

لذلك لا نجد البلاغيين يفرّقون بين علم البيان والنحو "عند التطبيق، وعند مواجهة النصوص لفهمها وتحليلها وتذوقها ونقدها، فلا يليق بناقد يتناول نصوصاً مّا أن يشبع الحديث عما فيها من تصوير دون أن يربط ذلك ببناء الصورة ونظمها؛ لأن كثيراً من مزايا الصورة مرتبطٌ بكيفية بنائها"(١٦)، وهذا ما أكدّه الإمام عبد القاهر من خلال نظرية النظم عنده، حيث يرى أن قوام الصورة هو النظم، والنظم عنده: توخّي معاني النحو، والسير على قوانينه وأصوله ومناهجه، وعدم الإخلال بشيء منها(١٧)، وهو يعني بقوانينه وأصوله ومناهجه: طرق تعلّق الاسم بالاسم في الجملة الاسمية، وطرق تعلّق الفعل بالفعل في الجملة الفعلية، وطرق مجيء الحرف والأدوات، إلى غير ذلك مما هو متعلق بنظم الكلام، وحديثه هنا على مستوى الصحّة ، أما المستوى الثاني فهو الذي يعمد فيه الناظم على التخير والتدبّر على وجوه بحسب الغرض المقصود(١٨).

٧- ومن هنا – أي من خلال النظم - تنشأ الصلة بين علم البيان وعلم النحو ، ولعلّ هذا يدفع التوهّم بأن علم البيان إنما قوامه الصورة فحسب، وأنه لا تعلّق له بالنظم الذي هو توخّي معاني النحو، وإنما النظم خاص بـ(علم المعاني)!

حتى إنهم - بناء على ذلك الوهم - صنفوا (دلائل الإعجاز) على أنه في (علم المعاني)، وصنفوا (أسرار البلاغة) في علم البيان، "ولم يقصد عبد القاهر هذا التنويع؛ لأنه كان يبحث أساساً عن الإعجاز ويتوسّل له بالنظم والمفاضلة بين كلام وكلام، ولم يقصد التفريق بين وسائل النظم ووسائل التصوير؛ لأنه بحث الصورة في إطار النظم في الدلائل، وبحث النظم في إطار الصورة في الأسرار"(١٩).

لهذا نجده في الدلائل يمزج بين مباحث المعاني ومباحث البيان كالاستعارة والتمثيل والكناية، باعتبار إثبات تلك الصور من عناصر النظم ومكوّناته، وإنما توسّع في مباحث البيان في (أسرار البلاغة) لغرضه الذي من أجله ألف الكتاب، وهو تكوين الملكة النقدية، ومعرفة الفروق بين الصور المتعدّدة للمعنى، ومن أين تجتمع وتفترق، وليس من حيثُ إثباتُ تلك الصور؛ فإن الإثبات من عناصر النظم الذي هو أساس تلك الصورة، وقد قضى منه في الدلائل(٢٠)، وبين أنّ كل المزايا تعود إلى النظم ؛ ولهذا يقول الدكتور محمد شادي: "من الخطأ أن يصنّف (دلائل الإعجاز) على أنه في (علم المعاني)، فقد ربط الشيخ في أكثر من موضع بين البيان والمعاني ربطاً لا يجوز معه أي انفصال؛ إذ تراه مثلا لا يفرّق بين شاهدين من شواهد التشبيه وهما (زيد كالأسد) ، و(كأن زيداً الأسد)، فيوازن بين المثالين، ويصل إلى أن الثاني أقوى في

(١٤) بغية الإيضاح، ٣/٢ . علوم البلاغة، شادي، ص٢٦٠ .
(١٥) التصوير البياني، محمد أبو موسى، ص٧٠ .
(١٦) علوم البلاغة، شادي، ص٣ .
(١٧) دلائل الإعجاز، ص٥٥، ٢٨٤ .
(١٨) شرح دلائل الإعجاز، ص١٤١ .
(١٩) علوم البلاغة، شادي، ص٢٥ .
(٢٠) انظر: شرح أسرار البلاغة، د. محمد شادي ، ص١٦، وشرح دلائل الإعجاز، ص٤٧ . كما أن في ذلك إشارة إلى ترجيح القول بأسبقية الدلائل .

إثبات الشبه، حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي، ثم يردّ هذا الفرق إلى نظم الكلم وترتيبه؛ حيث تقدمّت (الكاف) وركبّت مع (إنّ)[٢١].

وهذا يعني أنّ كلّ مزيّة في شواهد البيان – بمفهومه عند المتأخرين – تعود إلى النظم، ومن أجل هذا جعل عبد القاهر الاستعارة، والتمثيل، والكناية، من عناصر النظم ومكوناته، ومن مقتضياته ودواعيه"[٢٢]

.

والمقصود أن بين الصور والنظم ارتباطاً لا تنفصل عراه ، ومن مظاهر هذا الارتباط بين الصّور والنظم عند عبد القاهر أنه يجعل القيمة الحقيقية للاستعارة، والتمثيل، والكناية، في طريقة إثبات المعنى، أو إثباته بطريقة أقوى، والإثبات من أهم أركان النظم، يقول عبد القاهر: "ليست المزيّة لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها، ولكن في طريق إثباته لها وتقريره إياها"[٢٣] .

وطريقة الإثبات يحكمها التأليف والنظم، فالمزية فيما نعرفه من ألوان بيانية يرجع إلى كيفية التشكيل والنظم، فمثلا (كثير الرماد) ليست المزيّة في ادّعاء أنه شديد الكرم أو المبالغة في كرمه، ولكن في إثبات الكرم له بطريقة أقوى من الطريق المباشرة؛ لأنك أكدت المعنى المقصود بذكر دليله، وهو كثرة الرماد، ولا شكّ أم إثبات الصفة بإثبات دليلها وشاهد وجودها آكد في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا غُفْلا ساذجا[٢٤].

٨- لم يعد النحو هو سِرّ المزيّة وأساس الصورة فحسب، وإنما أصبح مردّ الحكم عند اختلاف وجهات النظر في المسائل، ومن ذلك الحكم به بين التشبيه البليغ والاستعارة؛ فإن الكلام إذا أجري فيه لفظ دل سياق الكلام فيه على تشبيه شيء بمعناه، كان ذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون المشبَّه مطويا غير مذكور ولا مقدر؛ كقولك: (غنّت لنا ظبية)، وأنت تريد امرأة، وقولك: (لقيت أسداً)، وأنت تريد رجلا شجاعا، ولا خلاف أن هذا ليس بتشبيه وأن الاسم فيه استعارة.

والثاني: أن يكون المشبه مذكورا أو مقدرا؛ بمعنى وجود الطرفين الأساسين في الكلام تحقيقاً أو تقديرا، فهذا على قسمين:

أ- قسم ذُكرت فيه أداة التشبيه؛ كقولنا: (زيد كالأسد)، أو (كالأسد) بحذف (زيد)؛ فهذا متفق على أنه تشبيه وليس استعارة.

ب- قسم حذفت فيه أداة التشبيه؛ كقولك (فلان أسد)، أو (أسد) للرجل الشجاع؛ فهذا اختلف البلاغيون فيه؛ أهو من قبيل الاستعارة أم من قبيل التشبيه البليغ؟

فكان أهل الأدب قديما يظنونهما شيئا واحداً، حتى جاء القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" فوقف عند قول أبي نواس (والحبُّ ظهرٌ) من قوله:

والحبُّ ظهرٌ أنت راكبُه فإذا صرفتَ عَنانه انصرفا

(٢١) راجع دلائل الإعجاز، ص٢٥٨ .

(٢٢) شرح دلائل الإعجاز،ص٤٧.

(٢٣) راجع (دلائل الإعجاز، ص٧١) .

(٢٤) شرح دلائل الإعجاز، ص٤٦، ودلائل الإعجاز ص٧١ .

فأومأ إلى الفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة فقال: "ولستُ أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت – يعني تقديره – مثل ظهر، أو الحب كظهر"(٢٥).

وجاءه بعده عبد القاهر الجرجاني فأخذ برأيه وفضّل تقنين وضبط الفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة بالاعتماد على موقع المشبه به في الجملة من حيث الإعراب؛ فإن كان المشبه به في الإعراب مبتدأً أو فاعلاً أو مفعولًا به: فالكلام استعارة وليس تشبيها، مثل: (القمر يجلس بيننا)، و (أقبل القمر)، و (رأيت قمراً يزورنا)؛ فالمشبه به الذي هو (القمر) جاء في المثال الأول: مبتدأ، وفي الثاني فاعل، وفي الثالث مفعولاً به؛ فالكلام إذن من قبيل الاستعارة وليس تشبيهاً بليغاً.

وإن كان المشبه به خبرا، أو في حكم الخبر - كخبر (كان وإن) ، والمفعول الثاني لباب (علمت) والحال: فالأصح أنه يسمى تشبيها، وأن الاسم فيه لا يسمى استعارة؛ كقولنا: (زيد أسد)؛ فالمشبه به الذي هو (أسد) وقع خبراً؛ فيكون حينئذٍ تشبيها بليغاً وليس استعارة، ومنه قوله تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} أي: هم صم بكم عمي؛ فجاء المشبه به (صم بكم عمي) خبراً، ومن ذلك قول من يخاطب الحجَّاج:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ فَتْخَاء تنفرُ من صفيرِ الصافر[٢٦]

أي: هو أسد. وكقولنا: (رأيت زيدا بحرا)؛ فإن (بحراً) وقع مفعولاً ثانياً لرأى العلمية القلبية، الناصبة لمفعولين، وهو في حكم الخبر؛ لأن أصل الجملة (زيد بحر) مكونة من مبتدأ وخبر، والمشبه به خبراً.

فإذا قلنا: (رأيت بحراً)، تقصد رجلاً كريما معطاء؛ فهذه رؤية بصرية تنصب مفعولاً واحداً، هو (بحراً) وقد تقدم أن المشبه به إذا وقع مفعولاً به فالكلام استعارة لا تشبيه.

وخلاصة الأمر: أن القاضي الجرجاني حسم الأمر في هذا بأنه حيثُ ذكر الطرفان كان تشبيهاً، وتبعه عبد القاهر؛ لكنّه فضّل تقنينَ وضبطَ الفرق بين التشبيه والاستعارة بأن يكون الاعتمادُ على موقع المشبه به، فإذا وقع المشبه به مبتدأ أو فاعلاً أو مفعولا فالكلام استعارة.

أما إذا وقع المشبه به خبراً أو في حكم الخبر إذا كان معرفةً فهو تشبيه بليغ؛ لسهولة تقدير الأداة، مثل: (هو الأسد) و (محمد البحر)، وإذا وقع خبرا وكان نكرة، وسهل تقدير الأداة: كان تشبيها أيضاً، نحو: (محمد أسد) إذ يمكن تقدير (كأن محمدا أسد)، أما إذا كانت الصياغة لا يحسن دخول أداة من أدوات التشبيه عليها إلا بأن تحدث شيئاً من التغيير فيها، كقولك: (هي بدر يسكن الأرض) ، أو (هو بحر قوي الحجة) ، فإنه لا يحسن دخول الأداة في مثل هذا إلا بتغيير في الصياغة، كأن تقول: (كأنها بدرٌ إلا أنها تسكن الأرض) [٢٧] ولو قلت مثلا: (كأنها بدر يسكن الأرض) لتحوّل الكلام من حديث عنها إلى الحديث عن البدر. وإن كان عبد القاهر يغلّب جانب الطبع والذوق في هذه المسألة[٢٨].

٩- إذا تبين هذا فغير لائق بالنحوي ألاّ يعرف من البلاغة إلا اسمَها، وكيف يستغني باحث البلاغة عن النحو وهو أداته الكبرى وأصل مادته؟ إذ إن البلاغة تبدأ من حيث ينتهي النحو؛ فلا بد لباحث البلاغة إذن أن يبحث بعلم النحو ليكتمل بحثه، وإلاّ فبحثه خداج ناقص غير تمام؛ إن لم يكن بذلك فاسداً بالكلية، وإن الزهد في النحو مظنة الغلط والقول على الله بغير علم، يقول عبد القاهر الجرجاني (ت:٤٧١): "وأما زهدُهم في النحو واحتقارُهم له وإصغارُهم أمرَه وتهاونُهم به فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي

---

(٢٥) الوساطة، ص (٢٣).

[٢٦] نسب في الأغاني لعمران بن حطان، ونسب في حماسة البحتري لأسامة بن سفيان البجلي، وفيه "رَبْداء" بدل "فتخاء" والفتخ: استرخاء المفاصل ولينها، والربدة: لون يميل إلى الغبرة. والشاهد في أنه على تقدير: هو أسد.

(٢٧) انظر: شرح أسرار البلاغة، ص٦٧٥، التصوير البياني، ص٢٠٢ .

(٢٨) وانظر: علو البلاغة، شادي، ٢٦٣.

تقدَّم[٢٩] وأشبه بأن يكونَ صدّاً عن كتابِ الله وعن معرفة معاينه؛ ذاك لأنهم لا يجدون بُدّاً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذ كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتّى يكون الإعرابُ هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكونَ هو الْمُستخرِجَ لها، وأنه المعيارُ الذي لا يُتبيَّنُ نقصان كلامٍ ورجحانه حتى يُعرضَ عليه"[٣٠].

١٠- إنّ من جناية فصل علم البيان عن النحو أنه يجدّد القول البائد المندرس بأن الآيات القرآنية التي تشتمل على صورٍ بيانية في القرآن غيرُ معجزة؛ لأنها لا تعلّق لها بالنظم الذي هو مناط التحدي والإعجاز؛ فحينئذٍ ليست معجزة!

وهو ما خفي حتى على بعض النقاد والبلاغيين الكبار كالباقلاني (ت:٤٠٣) حيث نفى أن تكون هذه الألوان والصور معجزة في القرآن لأنها توجد في الشعر[٣١] وغاب عنه الفرق بين هذه الصور والألوان في القرآن وبينها في كلام العرب؛ فإنها معجزة في القرآن لأن نظمها وتركيبها وتأليفها معجز، وغيرُ معجزة في كلام العرب لأن نظمَها غير معجز[٣٢]؛ قال عبد القاهر: "فإن قيل : قولك : (إلاّ النظم) يقتضي إخراجَ ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجزٌ، وذلك ما لا مساغَ له . قيل : ليس الأمرُ كما ظننتَ بل ذلك يقتضي دخولَ الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجزٌ ؛ وذلك لأن هذه المعاني التي هي: الاستعارةُ والكنايةُ والتمثيلُ وسائرُ ضروبِ المجاز من بعدها: من مقتضيات النظمِ، وعنه يَحْدُث وبه يكون[٣٣]؛ لأنه لا يتصوَّر أن يدخلَ شيءٌ منها في الكلم وهي أفرادٌ لم يُتوخَّ فيما بينها حكمٌ من أحكام النحو، فلا يتصوَّر أن يكونَ هاهنا فعلٌ أو اسمٌ قد دخلتْه الاستعارةُ من دون أن يكون قد ألّف مع غيره ، أفلا ترى أنه إنْ قدَّر في (اشتعل) من قولهِ تعالى : {واشْتَعَلَ الرأسُ شيباً}[٣٤] ألاّ يكونَ الرأس فاعلاً له ،ويكونَ (شيباً) منصوباً عنه على التمييز لم يتصوَّر أن يكونَ مستعاراً . وهكذا السبيلُ في نظائر الاستعارة فاعرفْ ذلك"[٣٥] .

المبحث الثاني: موضوعات علم البيان وصلتها بالنحو
مع تطبيقات ونماذج من خلال كتابي عبد القاهر

موضوعات علم البيان هي صور البيان العربي، التي تتفاوت وتتنوع بحسب مقتضيات الأحوال، وهي عند جمهرة البلاغيين ثلاثة مباحث: التشبيه، والمجاز، والكناية، وسأمثل على كل مبحث منها بما يوضّح مدى الصلة بينه وبين النحو .

أولا: التشبيه:

يعرف التشبيه بأنه "الدلالة على مشاركة أمر لأمرٍ في معنىً بإحدى أدوات التشبيه لفظاً أو تقديراً؛ لغرض يقصده المتكلم"[٣٦] ، وهو عند النحاة كما هو عند البلاغيين، وله طرائق منها: الربط بين ركني

(٢٩) يقصد بالذي تقدم: زهدهم في الشعر وتهاونهم به؛ لأن عبد القاهر يرى أن العلم بالشعر والعلم بالنحو من أهم أدوات الباحث عن الإعجاز . انظر: شرح دلائل الإعجاز، د. محمد شادي، ص٨٠ .

(٣٠) دلائل الإعجاز، ص٢٨ .

(٣١) إعجاز القرآن، للباقلاني، ص١٧٠ .

(٣٢) انظر : المدخل إلى كتابي عبد القاهر، ص٨٠، والإعجاز في نظم القرآن، ص١٣٥ .

(٣٣) أي: أن النظم هو الذي يحصل به الإعجاز .

(٣٤) مريم: آية ٤

(٣٥) دلائل الإعجاز، ص٣٩٣ .

(٣٦) انظر: بغية الإيضاح، ٣/٧ ، المفصل في علوم البلاغة، العاكوب، ص٣٥٥ .

التشبيه بأداة تفيد التشبيه حرفا كـ(الكاف) واسما نحو: مثل ومثيل وشبه وشبيه، وفعلا نحو: يماثل أو يشبه، وقد تحذف الأداة فيسند المشبّه به إلى المشبه (مبتدأ وخبر) والبلاغيون يقسمونه أقساما، منها التشبيه البليغ والتمثيلي والمفصّل والمجمل والمؤكد والمرسل وغير ذلك باعتبار الوجه واعتبار الأداة، كما يقسمونه بحسب الأغراض والحسية والعقلية والإفراد والتركيب، وهذه التقسيمات وغيرها هي من عمل البلاغيين بلا شك، والنحاة يذكرون التشبيه مجملاً باعتباره معنىً يقصده المتكلم، ويذكرون أدواته ، وهو عندهم من المعاني النحوية الإضافية(٣٧).

لذلك فإن لاختلاف أدوات التشبيه بين الحرفية والاسمية والفعلية أثرا من حيث الدلالة، فقولنا: (فلان كالأسد) ليس كقولنا (فلان مثل الأسد) أو (كأنه أسد) أو (يشبه الأسد)(٣٨)، فالأسماء أدلّ على إثبات الشَبَه من الأفعال؛ لأن الأسماء بطبعها تدل على التمكن والثبوت والاستمرار.

وذكر البلاغيون فروقاً بين الكاف وكأن من ناحية التركيب: فالأصل في (الكاف) أن يليها المشبّه به، مثل: (زيد كالأسد) فالمشبّه: زيد، والمشبه به: الأسد، والأداة: الكاف، ونلحظ أنها قد دخلت على المشبه به في هذا المثال.

أما (كأن) فتدخل على المشبّه غالباً، مثل: (كأن زيداً أسد)، فالمشبّه: زيد، والمشبه به: الأسد، والأداة: كأن، ونلحظ أنها قد دخلت على المشبه في هذا المثال. ومثله (زيد كأنه أسد(فالمشبه هو الضمير (الهاء) العائد على زيد، ودخلت عليه (كأن).

وذكروا فروقاً أخرى بين الكاف وكأن من الناحية البلاغية: فـ(كأن) أقوى من الكاف في إثبات وجه الشبه؛ فقولك: "كأن زيدا أسد" أبلغ من نحو: "زيد كالأسد"؛ لأن "كأن" تفيد الظن مع التشبيه، والظن قريب من العلم فيفيد شدة المشابهة؛ فهي أقوى من الكاف في إثبات الشبه.

وكان البلاغيون شديدي التنبه والوعي بما تؤديه التراكيب في هذا الباب من وصف كاشف؛ حين ذكروا أنّك تقول (هو كالأسد) فيفيد ذلك ضرباً من الشعور بجراءته، وتقول (هو صاحبك) فتفيد أن الخبر هو المبتدأ وأنه لا فرق بينهما(٣٩)، كما أن للصياغة ومراعاة دلالات التراكيب أثراً في ذلك أيضاً – كما تقدم - ولذلك استشهد عبد القاهر بقول ابن قيس الرقيات:

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظلماء

على أن صياغة التشبيه بأسلوب القصر وبواسطة (إنما) خاصة تجاوز ذلك المعنى إلى ادّعاء أن كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلومٌ للجميع لا يدفعه أحد؛ لأن (إنما) لا تدخل إلا على الأمر المعلوم الذي لا يجهله المخاطب ولا ينكر صحّته، فقد نزّل غير المعلوم منزلة المعلوم ادّعاء(٤٠) ، قال : "ومثله قولهم: (إنما هو أسد) و (إنما هو نار) و (إنما هو سيف صارم)، إذا أدخلوا (إنما) جعلوا ذلك في حكم الأمر الظاهر المعلوم الذي لا يُنكر ولا يُدفع ولا يَخفى"(٤١) .

---

(٣٧) انظر : المعاني النحوية (موقعها في التصنيف البلاغي وأثرها في تبويب علم المعاني) د. سليمان العايد، وهو بحث نفيس في بابه، انتهى فيه إلى أن معاني النحو ضربان: (معانٍ وظيفية) و (معانٍ إضافية) . والبحث ضمن كتاب (ندوة البلاغة العربية ، سؤال الهوية وآفاق المنهج) طبعة جامعة أم القرى بإشراف: أ.د . عبد الله بن إبراهيم الزهراني . ص١١ فما بعدها

(٣٨) انظر: الخصائص ، لابن جني، ٣١٧/١ ، و التصوير البياني ، ص١٨٨ .

(٣٩) انظر: التصوير البياني ، ص١٨٨ .

(٤٠) انظر: دلائل الإعجاز، ص٣٣٠، وشرح دلائل الإعجاز، ص٤٧، ٤٢٠ .

(٤١) دلائل الإعجاز، ص٣٣١ . وحق (الهاء) في لفظ الجلالة الذي في البيت أن تكون في بداية الشطر الثاني عروضياً؛ لكن كرهت قطع اللفظ إجلالا لاسم الله العظيم .

فكان أساس المزية عند الشيخ في طريقة تشكيل الكلام وكيفية التصرّف في عناصر النظم؛ لأنه يرى أن التصرّف في عناصر النظم يوضح ماتحققه الصورة البيانية من تخييل وادّعاء، وقد ظهر ذلك جلياً في التشبيهات السابقة(٤٢) .

وفي سياق حديثه عن صياغات الجملة التمثيلية يرغّب الشيخ في تتبّع صياغات الجملة التمثيلية، وذلك لغاية استولت عليه في هذا السياق، وهي أن الشبه ينتزع من الفعل وما تعدّى إليه مهما كانت صياغة الجملة(٤٣)، حيث يقول: "واعلم أن هذا الشبه حُكْمُهُ واحدٌ، سواءٌ أخذته ما بين الفعل والمفعول، لصريح، أو ما يجري مجرى المفعول، فالمفعول كالقوس في قولك: (أخذ القوسَ باريها)، وما يجري مجرى المفعول، الجارُّ مع المجرور، كقولك: (الرَّقم في الماء) و (هو كمن يخطّ في الماء)، وكذلك الحال، كقولهم: (كالحادي وليسَ له بَعيرٌ)، فقولك: (وليس له بعير)، جملة من الحال، وقد احتاج الشبه إليها، لأنه مأخوذ ما بين المعنى الذي هو الحدو، وبين هذه الحال، كما كان مأخوذاً بين الرقم والماء، وما بين الفتل والذروة والغارب، وقد تجد بك حاجةً إلى مفعول و إلى الجارّ مع المجرور كقولك: (وهل يُجمَع السيفَان في غِمد)، و (أنت كمن يجمع السيفين في غِمد)، ألا ترى أن الجمع فيه لا يُغني بتعدّيه إلى السيفين، حتى يُشترط كونه جمعاً لهما في الغمد؟ فمجموع ذلك كله يُحصِّل الغَرَضَ، وهكذا نحو قول العامّة: (هو كثير الجَوْر على إلْفه)، وقولهم: (كَمُبْتَغِي الصَّيدَ في عِرّيسةِ الأسد)؛ لأن الصيدَ مفعول و في عِرّيسةِ جارٌّ مع المجرور، فإذا ثبت هذا ظهر منهُ أنه لا بدَّ لك في هذا الضرب من الشَّبَه من جملة صريحة أو حكم الجملة، فالجملة الصريحة قولك: (أخذَ القوسَ باريها) وحكم الجملة أن تقول: (هذا منك كالرَّقم في الماء)، و (كالقابض على الماء)، فتأتي باسم الفاعل، وذَاك أنّ المصدر واسمَ الفاعل ليسَا بجُملتين صريحاً ولكن حكم الجملة قائم فيهما، وهو أنك أعملتهما عَمَل الفعل، ألا ترى أنك عدَّيتهما على حسب ما تعدَّى الفعل؟ وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضبط، وقد وقفتك على الطريقة"(٤٤) .

وفي حديثه عن صياغات المشبّه به في التشبيه التمثيلي المركب يقول: "والجملة إذا جاءت بعد المشبَّهِ به، لم تخلُ من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون المشبَّه به معبَّراً عنه بلفظ موصولٍ، وتكون الجملة صِلة، كقولك أنت الذي من شأنه كَيْتَ وكيت، كقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ}(٤٥) .

والثاني: أن يكون المشبَّه به نكرةً تقع الجملة صفةً له، كقولنا أنت كرجل من أمره كذا وكذا، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (النَّاسُ كإبِلٍ مِئةٍ لا تجد فيها رَاحلة)(٤٦)، وأشباه ذلك.

والثالثُ: أن تجيء مبتدأةً، وذلك إذا كان المشبَّه به معرفةً، ولم يكن هناك الذي، كقوله تعالى: {كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً}"(٤٧) .

ولعل في هذا ما يوضح المقصود ويفي بالمطلوب؛ وإلا فمباحث التشبيه التي تقوم على أساس النحو كثيرة متشعّبة .

ثانياً : المجاز :

(٤٢) انظر: شرح دلائل الإعجاز، ص٤٧.
(٤٣) انظر: شرح أسرار البلاغة، ص٣١٦.
(٤٤) أسرار البلاغة، ص١٠٨ فما بعدها.
(٤٥) البقرة: ٧١ .
(٤٦) رواه البخاري، (٦٤٩٨) .
(٤٧) العنكبوت: ٤١ . أسرار البلاغة، ص١١٤ .

المجاز – كما لا يخفى - ينقسم بحسب الاستعمال اللغوي والإسنادي إلى قسمين:

١- المجاز اللغوي: وهو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له ، لعلاقة مّا، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي . وهو نوعان: مفرد ، ومركب .

أ- المفرد: وموضعه الكلمات المفردة، وينقسم تبعا للعلاقة إلى قسمين، هما: الاستعارة، والمجاز المرسل .

ب- المركب: وموضعه التركيب، وينقسم تبعاً للعلاقة إلى قسمين، هما :
الاستعارة التمثيلية، والمجاز المرسل المركب.

٢- المجاز العقلي : وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له؛ لعلاقة مّا، مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي (٤٨)، والعلاقة بينه وبين النحو واضحة؛ لكون علاقتة في الإسناد كالزمانية والمكانية، والفاعلية، والمفعولية، والمصدرية(٤٩). وهو الذي أوضحه معالمه عبد القاهر وسمّاه بـ (المجاز الحكمي) .

وطلباً للاختصار ولفت النظر بأدنى مقدار: سأكتفي بالحديث عن الاستعارة وحدها، فأقول: الاستعارة تُعد امتداداً للتشبيه لأنه أصلها وكالمقدّمة لها(٥٠)، ثم إنها تكتسب مزيتها ودقتها ولطفاها بفضل خصوصية معيّنة وهي معاني النحو، وكيفيات خاصّة في الإسناد ، قال عبد القاهر: "وأنا أكتب لك شيئاً مما سبيل الاستعارة فيه هذا السبيل(٥١)؛ ليستحكم هذا الباب في نفسك ولتأنس به، فمن عجيب ذلك قول بعض الأعراب:

الليل داجٍ كَنَفا جِلبابِه والبينُ محجورٌ على غرابه

ليس كل ما ترى من الملاحة لأنّ جعل لليل جلباباً وحَجَر (البين) على الغراب، ولكن في أن وضع الكلام الذي ترى، فجعل (الليل) مبتدأ، وجعل (داج) خبراً له وفعلا لمابعده، وهو (الكنفان) وأضاف (الجلباب) إلى ضمير (الليل) ، ولأن جعل كذلك (البين) مبتدأ وأجرى (محجوراً) خبراً عنه، وأن أخرج اللفظ على (مفعول) . يبين ذلك أنك لو قلت: (وغراب البين محجور عليه أو قد حجر على غراب البين) لم تجد هذه الملاحة، وكذلك لو قلت: (قد دجا كنفا جلباب الليل) لم يكن شيئا(٥٢) .

ومما أورد الإمام للبرهنة على هذه القضية قوله: " وإنْ أردتَ أعجبَ من ذلك فيما ذكرتُ لك فانظرْ إلى قولِه: سالَتْ عَلَيْهِ شِعابُ الحَيّ حينَ دَعا أَنْصَارَهُ بِوُجوهٍ كالدَّنَانِيْرِ

فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفِها وغرابتها إنَّما تمَّ لها الحسنُ وانتهى إلى حيثُ انتهى بما تُوخِّيَ في وضعِ الكلامِ من التقديمِ والتأخيرِ، وتجدُها قد مَلُحَتْ ولَطُفَتْ وبمُعاونةِ ذلك ومؤازرتِهِ لها، وإن شككْتَ فاعمدْ إلى الجارّين والظرفِ فأزِلْ كلاًّ منها عن مكانِه الذي وَضعه الشاعرُ فيه فقلْ: (سالتْ شعابُ الحيَّ

(٤٨) انظر: بغية الإيضاح، ٧٦/٣ فما بعدها، والمفصل في علوم البلاغة، ص٤٤٩، ٥١٣، ٥٢٤ ، وعلوم البلاغة، شادي، ص٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٤٩) وقد أدخله بعض البلاغيين في علم المعاني، كالسكاكي وتبعه الخطيب، وأدخله بعضهم في علم البيان كابن يعقوب، والشربيني ، وهو اختيار الدكتور محمد شادي . انظر: شروح التلخيص، ٢٢٥/١، وشرح تلخيص المفتاح للشربيني، ١٥٥/٢، وعلوم البلاغة ، شادي، ص٢٥٩، ٣٥٩.

(٥٠) انظر: التصوير البياني، ص١٨٩، وعلوم البلاغة، شادي، ٢٦١ .

(٥١) أي مما يرجع فيه الحسن إلى معاني النحو ونظم الاستعارة وليس للاستعارة وحدها . شرح دلائل الإعجاز،ص١٧١

(٥٢)دلائل الإعجاز، ص١٠٢ .

بوجوهٍ كالدَّنانير عليه حين دعا أنصارَه) ثم انظرْ كيفَ يكونُ الحالُ وكيف يذهبُ الحسنُ والحلاوةُ وكيف تَعدَمُ أرْيَحيتك التي كانت، وكيف تذهبُ النَّشوةُ التي كنتَ تجدُها"(٥٣).

وقال أيضا: "ومن دقيق ذلك وخَفيّه أنك ترى الناسَ إذا ذكروا قوله تعالى : {واشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً} لم يَزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرفَ إلا إليها، ولم يَروا للمزيَّة موجباً سِواها . هكذا ترى الأمرَ في ظاهرِ كلامِهم وليس الأمرُ على ذلك، ولا هذا الشَّرفُ العظيمُ ولا هذه المزيةُ الجليلةُ وهذه الرَّوعةُ التي تدخُلُ على النُّفوس عند هذا الكلام لمجرَّد الاستعارة؛ ولكن لأنْ سُلِك بالكلام طريقُ ما يسندُ الفعلُ فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه؛ فيُرفعُ به ما يسند إليه ويؤتَى بالذي الفعلُ له في المعنى منصوباً بعده، مبيناً أن ذلك الإسنادَ وتلك النسبةَ إلى ذلك الأول إنَّما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتِّصالِ والملابسة، كقولهم: (طاب زيدٌ نفساً) و (قرَّ عَمْرٌو عَيْناً) و (تَصبَّب عرقاً) و (كَرُم أصلاً) و (حسُن وجهاً) ، وأشباه ذلك مما تجدُ الفعلَ فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيءُ من سببهِ؛ وذلك أنّا نعلمُ أن (اشتعل) للشَّيب في المعنى وإنْ كانَ هو للرأسِ في اللفظِ ، كما أنَّ (طابَ للنفس) و (قرّ للعين) و (تصبّبَ للعرق) وإنْ أُسند إلى ما أُسند إليه يُبيّنُ أنَّ الشَّرف كان لأنْ سُلِكَ فيه هذا المَسْلك ،وتُوُخِّيَ به هذا المذهبُ أنْ تدَعَ هذا الطريقَ فيه، وتأخذَ اللفظَ فتسندهُ إلى الشَّيب صريحاً فتقولِ : (اشتعَلَ شيبُ الرأس) أو (الشيبُ في الرأس)، ثم تنظر : هل تجدُ ذلك الحسنَ وتلك الفخامَة؟ وهل تَرى الرَّوعةَ التي كنت تراها ؟"(٥٤)، ثم قال: "ونظيرُ هذا في التَّنزيلِ قولُه عَزَّ وجَلَّ : (وفَجَّرْنَا الأرْضَ عيوناً) (٥٥) التفجيرُ للعيون في المعنى وأوقعُ على الأرضِ في اللفظ كما أسندَ هناك الاشتعالَ إلى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشُّمول هاهنا مثلُ الذي حصلَ هناك . وذلك أنه قد أفادَ أنَّ الأرضَ قد كانت صارتْ عيوناً كلُّها وأنَّ الماءَ قد كان يفورُ من كلِّ مكانٍ منها، ولو أُجريَ اللفظُ على ظاهرِه فقيل: (وفَجَّرنا عيونَ الأرضِ) أو (العيون في الأرض) لم يُفِد ذلك ولم يَدُلَّ عليه ولكان المفهومُ منه أنَّ الماءَ قد كان فارَ من عيونٍ متفرقةٍ في الأرض وتبجَّس من أماكنَ منها"(٥٦) .

وقال عبد القاهر أيضا: "ومن النَّادِر فيه قولُ المتنبي:

غَصَبَ الدَّهْرَ والمُلوكَ عَلَيْها فَبَناها في وَجْنَةِ الدَّهرِ خَالا

قد ترى في أول الأمر أنَّ حسنَه أجمعَ في أن جعلَ (للدَّهر) (وجنةً) وجعل البنيَّة (خالاً) في الوجنة ، وليس الأمرُ على ذلك فإنّ موضعَ الأعجوبة في أن أخرج الكلام مُخرجَه الذي تَرى وأن أتى بـ(الخال) منصوباً على الحال من قوله: (فبناها)، أفلا ترى أنّك لو قلت : (وهي خالٌ في وجنةِ الدَّهر) لوجدتَ الصّورة غيرَ ما ترى؟"(٥٧).

وقد استطرد الشيخ في (دلائل الإعجاز) في ذكر نماذج كثيرة، ليقرر فكرته، ويؤكّد أن المزية في هذه الصور إنما هي للنظم وتوخّي معاني النحو، وأن جمال الاستعارة إنما يتم بمكانها ونظمها .

ثم توسّع الإمام في ذلك في كتاب (أسرار البلاغة) وتحدث عن (استعارة الفعل)، وأن وصف الفعل بأنه مستعارٌ حُكمٌ يرجع إلى مصدره، وإذا كان كذلك انقسمت استعارة الفعل انقسام استعارة الاسم، ثم إن

(٥٣)دلائل الإعجاز، ص٩٩ .
(٥٤)دلائل الإعجاز، ص١٠٠ .
(٥٥) القمر، آية ١٢.
(٥٦)دلائل الإعجاز، ص١٠٢ .
(٥٧)دلائل الإعجاز، ص١٠٣ .

(استعارة الفعل) تكون مرّة من جهة فاعله، وتارة من جهة مفعوله أو مفعوليه[٥٨] إلى غير ذلك من المباحث النفيسة التي يرجع أمرها إلى النحو، ومما يؤكد أن النحو ركيزة أساسية في التصوير البياني .

ثالثا: الكناية:

الكناية في اصطلاح البلاغيين: لفظ أريد به لازم معناه الأصلي، مع جواز إرادة ذلك المعنى الأصلي . والفرق بينها وبين المجاز: أن المجاز فيه قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي، مثل (سلّم) في قولك : (سلمت على الأسد) ، والكناية ربما يكون فيها قرينة لكنّها معينة للمراد ومحدّدة للمقصود؛ لكنّها لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي، نحو : (شاب شعره) و (انحنى ظهره) فالمعنى الأصلي هو الشيب والانحناء ، وهو وارد غير ممتنع . وقد تعتمد على المجاز ، نحو : (ركبت سفينة الصحراء) كناية عن الجمل، و (فلانة خرساء الأساور) كناية عن امتلاء يديها[٥٩] .

وهي كغيرها من الصور البيانية تكمن مزيّتها في طريقة إثبات الكلام وتقريره، والإثبات كما تقدم: عنصر من عناصر النظم ومكوناته ، يقول عبد القاهر: "فينبغي أن تعلمَ أَنْ ليست المزايا التي تجدُها لهذه الأجناسِ على الكلامِ المتروكِ على ظاهرِهِ والمبالغة التي تحسُّها في أنفسِ المعاني التي يقصِد المتكلم بخبرِه إليها ولكنها في طريقِ إثباته لها وتقريره إياها، وأنك إذا سمعتَهم يقولون: إنَّ من شأنِ هذه الأجناس أن تُكْسِبَ المعاني مزيةً وفضلاً وتوجِبَ لها شرفاً ونبلاً وأن تفخِّمها في نفوسِ السامعين؛ لا يَعْنون أنفسَ المعاني التي يقصِد المتكلمُ بخبرِهِ إليها كالقِرى والشجاعة والتردّد في الرأي، وإنما يَعْنون إثباتَها لما تُثْبتُ له ويُخْبَرُ بها عنه؛ فإذا جَعلوا للكناية مزيةً على التَّصريحِ لم يجعلوا تلكَ المزيةَ في المعنى المكنَّى عنه ولكنْ في إثباته للذي ثَبَتَ له"[٦٠]، "ولا يخفى على من يتابع أبواب دلائل الإعجاز أن عبد القاهر أعلى شأن التصوير؛ فالاستعارة والتمثيل والكناية أقطاب تدور المعاني حولها وتنجذب إليها، وهي لهذا من أهم عناصر النظم"[٦١]، "وإذا تقرّر أنّ كلّ صحة أو فساد أو مزية في النظم ترجع إلى معنىً من معاني النحو، فإنه يعني أن كلّ صحّة أو فساد أو مزيّة في النظم ترجع إلى مواقع المفردات في النظم، ففي قول امرئ القيس – مثلا - :

وقد أغتدي والطيرُ في وكُناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ

كنّى عن التبكير الشديد بقوله: (والطير في وكناتها) وهذه الكناية تستمدّ ميزتها وقيمتها من موقعها حالاً مؤكدة للفعل (أغتدي) بمعنى أخرج في الغدوّ وفي البكور، والكناية صورة من الواقع صادقة وناطقة الدلالة على هذا التبكير، فميزة الكناية إذن مستمَدّة من النظم وترجع إلى معنىً من معاني النحو، وهو وقوع الكناية حالاً من فاعل الفعل (أغتدي) ، ولولا هذا الموقع لما كان لها مزيّة، بل لو خَلعتَ هذه الحال من موقعها فقدّمتها أو أخّرتها لفسد النظم"[٦٢] .

---

(٥٨) انظر : أسرار البلاغة، ص٥١ فما بعدها .

(٥٩) انظر:بغية الإيضاح، ١٥٠/٣ ،علوم البلاغة، شادي، ص٣٧٦ ، و المفصل في علوم البلاغة، ص ٥٣٥.

(٦٠)دلائل الإعجاز، ص٤٤٧ .

(٦١) شرح دلائل الإعجاز، ص٣٩ .

(٦٢) شرح دلائل الإعجاز، ص١٤٢ .

النتائج

من خلال ما سبق يمكن أن أدون أهم النتائج التي يمكن أن أخرج بها :

١-أن علوم اللغة العربية أصل واحد وكلٌّ لا ينفصل، وأن الصلة بينها وطيدة لا يمكن قطعها، وقد يظن بعض الناس أنه يمكنه أن يفهم الكلام العربي وأن يقرأ قراءة ثقافية واسعة دون أن يعرف تلك العلوم، وهذا من الوهم؛ فإنه لابدّ لمن أراد ذلك أن يكون على دراية تامّة بعلوم اللغة، بدءاً من علم المفردات المعجمية ، وعلم تصريف الكلمات ، وانتهاءً بعلم النحو وعلم البلاغة ، اللّذين تتجلى الصلة بينهما على جهة الخصوص؛ كونها علاقة واضحة بيّنة المعالم؛ فهما فرسا رهان ورضيعا لبان، وإذا أردنا أن نحقق غاية كلّ علم منهما فيجب أن تستمر تلك الصلة، وأن يكون الدرس النحوي محلّ اهتمام البلاغي، والعكس كذلك، ولا يعني ذلك أن لا ينبري لكل منهما من يكشف غوامضه ويجلّي دقائقه، ويغوص في أعماقه ؛ فالحاجة ماسة إلى ذلك؛ لكن ليس على حساب غيره من علوم اللغة؛ فإن هذا يقلل الثمرة ويشينُ الطالب ويزهّد في علمه .

٢-أن علم البيان لا يمكن أن ينفصل عن النحو؛ بل النحو أصله وركيزته؛ فهو وإن غلبت عليه الصورة وخلا من المصطلحات النحوية إلا أن التصوير قائم على النظم الذي هو توخي معاني النحو والإعراب، ومزيّةُ الصور البيانية وحسنها يكمن في النظم ويرجع إليه؛ وتمام الصورة من تمام بنائها .

وأوصي بأن تتجه أنظار الباحثين إلى هذه الدراسات البينية التي تقرّب العلوم بعد تباعدها، وتجمعها بعد تفرّقها، وتستردّها من الأيدي التي امتدت إليها من غير أهلها؛ فمزقتها كلَّ ممزق وجعلتها أحاديث للناس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
٢- إعجاز القرآن، للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، دار المعارف - مصر، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، تحقيق: الأستاذ أحمد صقر.
٣- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دارالمعارف، الطبعة الحادية عشرة.
٤- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، للدكتور: أجمد سعد محمد ، صادر عن مكتبة الآداب.
٥- التصوير البياني - دراسة تحليلية لمسائل البيان - د. محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٦- الإعجاز في نظم القرآن، د. محمد السيد شيخون، المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
٧- الخصائص، أبي الفتح عثمان بن جني، عالم الكتب - بيروت، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
٨- الموجز في تاريخ البلاغة، د. مازن المبارك، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة المعارف - الرياض،١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١٠- خصائص التراكيب - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني - د. محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الثامنة ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١١- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
١٢- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
١٣- شرح أسرار البلاغة، د. محمد إبراهيم شادي، دار اليقين للنشر والتوزيع -المنصورة، الطبعة الأولى١٤٣٤ هـ-٢٠١٣م.
١٤- شرح دلائل الإعجاز، د. محمد إبراهيم شادي، دار اليقين للنشر والتوزيع -المنصورة، مطبعة عيسى الحلبي، الطبعة الأولى١٤٣٤ هـ-٢٠١٣م.
١٥- الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد ابو الفضل وعلى البجاوي، ١٤٣٠هـ -٢٠١٠م.
١٦- علم العاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار -القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م
١٧- علوم البلاغة وتجلي القيمة الوظيفية في قصص العرب، د. محمد إبراهيم شادي، دار اليقين - مصر -المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
١٨- مخل إلى كتابي عبد القاهر -د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة -القاهرة، الطبعة الثامنة ١٣١٨هـ-١٩٩٨م.
١٩- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية -بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

The Relation between Rhetoric and Grammar" A Evaluation and Application in Abdel-Qaher Al-Jurjani `s books

Dr. Ali bin Mohammed al -Numah al-Qahtani
Assistant Professor of Rhetoric and Criticism
King Khalid University

Abstract

This research, which is entitled: "The Relation between Rhetoric and Grammar", A Evaluation and Application in Abdel-Qaher Al-Jurjani `s books" indicates the specificity of the relationship between archeology and grammar in Arabic, and it is a destination that corresponds to the point of denying the existence of this relationship. A link between them, but the science of the statement in its disclosure of the set of principles and rules pertaining to the presentation of the one meaning in a variety of ways that vary between truth and metaphor, analogy and metonymy; and these methods are based on the grammatical system as the container in which these meanings are presented by Abd al-Qaher al-Jurjani adopted in his two books: al-Asrar and al-`Ijaz to confirm that destination. The research divided into two chapters, the first: General introduction and point of view of vision, and the second: In subjects of rhetoric and their relevance with grammar, furthermore some applied models, which offer the effect of Grammar in the composition of rhetoric image and its dimensions.

Keywords: Rhetoric, Metaphor, Jurjani, metonymy, metaphor, Grammar.